المشترك الديني خطوة إلى التعايش ومحاربة التطرف

د.يوسف العايب
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة/الجزائر
مخبر الدراسات العقدية ومقارنة الأديان
dr.laiebyoucef@hotmail.com
00213674495442

مقدمة:

إن الدين بكل خطاباته التي تحث على التحلي بقيم المحبة والسلم والتعايش ونشر الخير لا يمكن أن يكون سببا في نشر القيم المناقضة لها من نشر للشر والعنف والاقتتال والكره والعداوة، وإذا وجدت هذه القيم في مجتمع ما فإن الدافع إليها ليس الدين في حد ذاته وإنما تلكم القراءات الذاتية المتحيزة للنصوص الدينية.

لقد دعت النصوص الدينية التأسيسية إلى ربط أواصر المحبة وقبول الآخر والتعامل بالرحمة والتي هي أحسن، وهذا ما نجده في الكثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والنصوص الإنجيلية والتوراتية، التي تركز على القيم الإنسانية والمبادئ العامة والأخلاق الكلية والدعوة إلى التوحيد، وهذا ما يدفعنا في هذه الورقة البحثية إلى بيان هذا المشترك الديني والإنساني والأخلاقي بين الديانات، والذي يعتبر بدوره خطوة مهمة نحو العيش المشترك وقبول الآخر ونبذ كل صور العنف والتطرف.

إن البحث في مجال المشترك الديني بين الديانات المختلفة من أجل ترسيخ قيم التعايش والتسامح هو بحث عن الأرضية المشتركة التي تهتم بمستقبل الإنسانية جمعاء من خلال الفهم السليم والعميق للمضامين والنصوص الدينية بمقاصدها الكبرى والكلية، بعيدا عن التعصب والفهوم الضيقة الحدية في قراراتها الواحدية في مواقفها.

إن المقصود بالمشترك الديني في هذه الورقة البحثية هو ما تشترك فيه الأديان من العقائد والشرائع والطقوس والأخلاق والقيم والمبادئ بعيدا عن التطبيقات والفهوم المختلفة لهذا المشترك،

فالمشترك الديني هو من القواسم المشتركة بين بني البشر، أو هو ما يتقاسمه الإنسان مع غير من بني جنسه.

مما لا شك فيه أن ظاهرة التطرف الديني تهدد الأمن القومي للدول، وتستهدف التراث الثقافي الذي يعكس الرقي الحضاري للإنسان عبر تاريخه الطويل؛ فتحديات الاستقرار السياسي والوئام الاجتماعي وكذا الإنتاج الاقتصادي، بالإضافة إلى حركية الإبداع الثقافي والابتكار العلمي، تتطلب في المقام الأول توفير الأمن والإحساس بالسلام والطمأنينة أفراداً وجماعات.

لذلك، كان لزاما التطرق لنزعات التطرف الديني، وما تفرزه من تعصب للرأي واستعمال للعنف عند أتباع الرسالات السماوية الثلاث ضد الآخر.

وهذا بالذات ما يدفع إلى البحث عن الخلفيات المشتركة التي تؤدي إلى إنتاج عقار التطرف معرفياً ووجدانياً وسلوكياً في الشرائع التوحيدية الثلاث، ومدى مسؤولية رجال الدين في تفريخ محاضن التشدد والغلو وممارسة الوصاية الفكرية والإرهاب الجسدي.

ومحاولة لفهم الخطاب المتطرف كنتاج لعوامل ذاتية تتعلق بنفسية المتطرف، وأخرى موضوعية لها ارتباط بمؤسسات التنشئة الاجتماعية، سنكتشف حجم الإقصاء والعنف والشيطنة التي مورست باسم الدين ضد المعارضين والمخالفين في الفكر والعقيدة، وإصدار الأحكام الجائرة ضدهم بحجة حماية المؤمنين من تلبيسات الزنادقة وخطايا الهراطقة.

من سمات خطاب التطرف أنه يجدد أزمات التاريخ وجروحه، بيد أنه يعجز عن إحياء روابط التعامل الدنيوي بمفهومه الإنساني

غير أنه وبالرجوع إلى ألسن السماء نفسها، نجدها تؤكد على وحدانية المصدر الإلهي وتقرر وحدة الأصل الإنساني.

من هنا تتجلى أهمية تحليل خطاب التطرف، باعتباره لا يرتبط بشريعة دون أخرى، ثم في الإحالة على الارتباك الفكري لرجال الدين في تدبير الخلاف، مما يفضي إلى إنتاج مفاهيم خاطئة ومعارف مغلوطة، ويولد سلوكيات عنيفة لا تتوافق مع معطيات التاريخ والجغرافيا، حيث تبقى أنسنة الخطاب الديني والعمل على تدبير المشترك السماوي خير استجابة للفطرة الإنسانية التي تتناغم في جوهرها مع

تعاليم الدين ووظيفته التنويرية في إرشاد الناس وتوجيههم نحو معاني الحب والإخاء والإحساس بقيمة الحياة.

في المشترك الديني

إن التطرف في منطق الملة الإبراهيمية بتنوع تجلياتها الموساوية والعيساوية والمحمدية لا يرتبط أبداً بالأديان السماوية شِرْعة ومنهاجا، ولا بنصوصها منطوقاً ومفهوما، بل يعود إلى ممارسات طقوسية وتأويلات منحازة وغير موضوعية للنصوص المقدسة التي تخضع بدورها عبر المنطق الداخلي لجماعة الارتباط العضوي للفرد لإعادة إنتاج المعنى للمفاهيم التوراتية أو الإنجيلية أو القرآنية، أسفاراً وإصحاحات وسورا.

نقرأ في التوراة المقدسة:

"بل يكون اسمك إبراهيم، لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جدا وأجعلك أمما. وملوكا منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا. لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك"

ونجد في سفر أعمال الرسل أحد كتب العهد الجديد:

"أيها الرجال الإخوة بني جنس إبراهيم، والذين بينكم يتقون الله، إليكم أرسلت كلمة هذا الخلاص

ويقرر لنا القرآن الكريم:

"وإذِ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن. قال إني جاعلك للناس إماما. قال ومن ذريتي. قال لا ينال عهدي الظالمين

هذا التذكير الرباني للعالمين بأن الدين لله، وأن رسالاته هي بشارة أبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يدفع بالضرورة رجال الدين المتنورين إلى تجديد عهد الأخوة الإبراهيمية في أفق صياغة رؤية مشتركة، وبلورة رسالة عليا وفق بصيرة مستنيرة، تتجاوز المحلية إلى الكونية بربط الوحي السماوي بمقاصده العليا وقيمه الإنسانية، وتحريره من السياسة الأرضية المتقلبة وفق مقاربات فعالة تروم خفض مستويات التعصب والتشدد، وتعزز استمرارية حالة النظام العام والأمن المجتمعي.

العيش المشترك ضرورة دينية وحاجة إنسانية

دعوني أنتقل من الفلسفة وفلسفة الدين والأخلاق إلى ترجمة المشترك الدينيّ والأخلاق إلى برنامج فلسفيّ معاش. هنا سوف أتوقّف عند القضيّة الأساسيّة التي تمثّل برنامج وإشكاليّة كرسي اليونسكو للفلسفة في العالم العربيّ وهي إشكاليّة الفلسفة وتجارب الغيريّة؛ التي حدّدها فتحي التريكي وفريق العمل معه في الكتاب الصادر عن افتتاح كرسي الفلسفة في تونس عن مفهوم جماليّة العيش المشترك وسعادة التحاور مع الغير دون أن يفقد المرء هويّته ونمط وجوده في العالم، ضمن التآلف والانسجام الذي لا يعبّر فقط عن عدالة مصحوبة بالحكمة والحب ولكن أيضًا عن الوفاق الممكن بين الأشخاص، فهو يعبّر عن إنسانيّة قوامها حقّ الاختلاف والاحترام والمحبّة

يبني البرنامج الذي نحن بصدّده على ضرورة أن يكون هناك توافق واع؛ يكون نتيجة تبادل مشترك بين الأنا والآخر، ليصبح الأرضيّة الرئيسيّة للعيش سويًّا، فلا وجود لحياة مشتركة دون توافق ودون حوار يؤكّد التريكي أنّ الأمّة لا تحقّق وحدتها وهويّتها إلاّ باتّفاقها من خلال عمليّة تحاوريّة ضخمة. تؤسّس فيها عوامل الارتباط وأسباب إنجاحها تحوّلها إلى عيش مشترك في ظلّ الكرامة والحرّيّة.

وتحدّث جاك دريدا في نفس هذا اللقاء الأوّل لكرسي اليونسكو عن قوانين الضيافة وهي مسألة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمشترك الإنسانيّ. ينطلق دريدا من كتاب كانط مشروع للسلام الدائم؛ حيث يطرح قضيّة الضيافة اعتمادًا على الفصل الثالث النهائي الذي يؤكّد على ضرورة أن يتحدّد القانون الكونيّ – المدني بشروط الضيافة الكونيّة. لقد شدّد كانط على حقّ مواطني العالم، أيّ أنّنا في مجال الحقّ. إنّ الضيافة الكونيّة إلزاميّة، إنّ حقّ الزيارة الذي هو حقّ متاح لكلّ البشر بمقتضى حقّ التملّك المشترك لسطح الأرض. وبما أنّ الأرض كرويّة وبالتالي متناهية. فإنّه على البشر أن يتدبّروا أمرهم في إيجاد كيفيّة تسمح لهم بالعيش معًا من أجل اقتسام سطح الأرض الذي هو ملكيّة مشتركة.

وقد شارك التريكي وكلّ من جاك بولان وكريستوف وولف في الإشراف ضمن برنامج كرسي اليونسكو للفلسفة على ندوة حول العنف والدين وتفاهم الحضارات؛ حوار أوروبا والبلدان الإسلاميّة " وجاء في مقدّمتهم للكتاب الصادر عن هذا اللقاء. إنّ الحروب وأشكال العنف التي سلّطتها بعض البلدان الأوروبيّة على بلدان مسلمة عملت بقوّة على إذكاء المشاعر السلبيّة تجاه الغرب. وهذا ما يفسّر أنّ عددًا كبيرًا من المسلمين غذّوا في نفوسهم حبّ العنف والأخذ بالثأر وإن كان في المسلمين أصوات ما فتئ عددها في ازدياد قد ارتفعت مشهّرة باللجوء إلى الإسلام لتبرير العنف ومؤكّدة وجود

خلط بين اتّجاه سياسيّ والدين الإسلامي إلاّ أنّ الإسلام كغيره من ديانات التوحيد الأخرى دين سلم ومحبّة ولكن مواقف هؤلاء لا تحظى بنفس الاهتمام الذي تحظى به الأصوات التي تربط بين الإسلام والحرب والعنف.

إنّ الخضوع لله في الإسلام وقيم الإحسان مثل الضيافة والكرم والتواضع والتقوى والتسامح؛ تلعب دورًا أساسيًّا؛ لأنّ حقيقة الإسلام تتألّف من تعاليم القرآن وسيرة الرسول وهي التي ترشد الأمّة الإسلاميّة في حياتها اليوميّة وفي وجودها وهي الضامنة لوحدتها والعرف والوحي والسيرة المستقيمة تمثّل وحدة الإيمان وعلى هذا الأساس ينخرط الفرد في الأمّة. إنّ الإسلام شأنه شأن اليهوديّة والمسيحيّة لا تحدّه أرض معيّنة وقد انتشر في كلّ أنحاء العالم تقريبًا فنشأت بذلك أمّة مسلمة عظيمة وكما هو الشأن بالنسبة إلى المسيحيّة ففي صلب الأمّة يوجد مزيج متنوّع من الثقافات، وجميع الأديان ترفض جعل الحياة مقصورة على النزعة الفرديّة والعقلانيّة وعلى العمل والإقصاء بل بالعكس فإنّ الاهتمام مركّز على ما للقيم الدينيّة والروحيّة من أهمّيّة في النموّ البشريّ ومن هذه القيم؛ السلم والتنوّع والدوام وهي قيم ثقافيّة يتوقّف عليها مستقبل البشر

وفي إطار الحوار الذي يدور بين البلدان الأوروبيّة والبلدان المسلمة يقترح هذا الكتاب دراسة عدّة محاور كبرى هي الدين والعنف السياسة والدين، الكونيّة والثقافة وفي كلّ هذه المجالات فإنّ المدار يكمن في تبادل معلومات ومعارف وآفاق حتّى يتمّ توسيع حقل التفاهم المشرك بين البشر وتعميقه.

إنّ نقطة الانطلاق في هذا اللقاء كانت العلاقة بين الدين والعنف. وسوف نتبيّن في لقائهم أنّ ديانات التوحيد الثلاث تحتوي على عناصر تجعلها قادرة تمامًا على تشجيع إرادة الحياة بين البشر؛ حياة سلام ومحبّة؛ ففي كلّ هذه الديانات يتعيّن عدم العمل بالنصوص الدينيّة التي تدعو إلى العنف وبالعكس تنمية الطقوس الدينيّة التي فيها الدعوة إلى التصالح؛ ففي الديانات الثلاث توجّهات نحو السلم كثيرة ينبغي استثمارها واستثمار ما فيها من إمكانات لتثقيف البشر أيّ لتكوينهم وتربيتهم وللقيم في هذه العمليّة دور كبير؛ فهي تساعد على تنظيم الحياة المشتركة وخارج النطاق الذي تنخرط فيه فإنّ لها دورًا تطّلع به في الحياة داخل المجتمع المدني.

ونذكر من الموضوعات المهمّة التي تناولها هذا اللقاء "الكونيّة" والتي لها تأثير في العلاقات بين البلدان الأوروبيّة والبلدان المسلمة. فهناك كثيرون يرغبون في الإسهام في رصيد التنمية الذي توفّره مسارات الكونيّة؛ إلاّ أنّهم ليسوا مستعدّين للتنازل عن هويّتهم الثقافيّة. وعندما تهدّد ظواهر الكونيّة الهويّة الثقافيّة بصورة دائمة فإنّ خطر ظهور أصوليّة دينيّة يزداد ويتجلّى في بروز مقاومة ضدّ ما يهدّد

بفقدان الهويّة الثقافيّة وحتّى ينجح الحوار بين البلدان الأوروبيّة والبلدان المسلمة؛ يتعيّن على الطرفين إقامة علاقة بين الكونيّة والهويّة الثقافيّة على اعتبار أنّ ذلك يمثّل مشكلاً مشتركًا بينهما.

وينبّهنا هؤلاء إلى الشروط التي يجب أن تتوفّر حتّى يكون الحوار بين الثقافات في البلدان الأوروبيّة والبلدان المسلمة أمرًا ممكنًا وواجبًا ومن بين المنطلقات الأساسيّة التي يشيرون إليها وجود فضاء جغرافيّ مشترك على ضفّتي البحر الأبيض المتوسط وما نشأ بينها من حوار في عمليّات تبادل مكثّفة: اقتصاد وسياسة وثقافة. وقد طبعت طيلة قرون تعايش الشعوب في هذه المنطقة ومع مرور الزمن ظهرت عديد التقاليد السلميّة تنتمّي إلى ثقافات مختلفة ومن المهمّ المحافظة عليها وتنميتها؛ لأنّ الحوار بين الثقافة شرط من دونه لا يمكن تحقيق مثل هذا الهدف.

وبما أنّ الوعي التاريخيّ يجعل تصوّر ما هو مشترك يمتدّ إلى المشاكل الراهنة فإنّ وجوده سوف يعتبر عاملاً مهمًّا يساعد على تحسين العلاقات بين البلدان الأوروبيّة والبلدان المسلمة؛ غير أنّه إذا ما أردنا أن ننتمّي وعيًّا تاريخيًّا مشتركًا فإنّه يكون من الضروري لكلّ طرف أن يستعدّ لمناقشة أوضاعه بنفسه ونقدها وأن يتحلّى بالشجاعة ليتصدّى لذلك. ولإنجاح الحوار نحن في حاجة إلى رصيد مشترك من القيم الدينيّة... من أجل بناء مشروع حياة مشتركة تتحقّق في نطاق التنوّع الثقافيّ والسلم.

وفي نفس برنامج كرسي اليونسكو للفلسفة يعرض بوحديبه لإشكاليّة الغير؛ حيث نحن نولد جميعًا في الغيريّة ونثبت ذاتنا في نطاق الغيريّة، ففي قلب الهويّة تقيم الغيريّة، فالغريب عنّا يسكن ذاتنا، والإنسان ليس إلاّ ذلك الكائن المغاير للغير، لذا يكون الوعي بالذات ثانويًّا على أساس أنّ الغير منذ البداية يسكن فيه ويتكوّن منه ويكشف عنه.

ينتهي بوحديبه إلى أنّ الغيريّة تعايش والتعايش رهان دائم لا بدّ من كسبه مهمّا كان الثمن. إنّ الغيريّة في الإسلام هي وضع الذات في منظور تتبادل مع الغير وهي قصد، ولئن كانت منبثقة من الداخل فهي دائمًا منفذ ومجهود يبذل من الذات وعمل إرادي. وعلى هذا الأساس فهي تلك التي بداخلنا تتولّى بكلّ جرأة مراقبة نزواتنا الحميمة وتطهيرها وتوجيهها وتأسيسها. إنّها تقيم الوئام الداخلي وترسم معالم مشروع حقيقي يتطلّع إلى المحبّة المشتركة الشاملة، لنكون منها ونبني على أساسها تصوّرا وافتراضًا يمكن الاتّفاق عليه، ليكون نواة للمشترك.

التطرف فهم خاطئ للنص الديني

إن المتتبع للخطاب المتطرف عند أتباع الرسالات السماوية الكبرى، يستغرب لحجم الحشد الطائفي والتعبئة النفسية المستقاة من الكلمة المقدسة، سواء في التوراة أو الإنجيل أو القرآن من خلال تنظيمات متشددة تتولى تفكيك البنية الدينية للفئة المستهدفة، وإعادة تركيبها وفق مخطط متشدد وصارم له أهدافه وأنشطته ووسائله ومصادر تمويله.

هذا التطرف مرتبط بصيرورة التنشئة الدينية ومعامل الاستدماج الدوغمائي للنواظم المتحكمة في تفاعل الوسط، وتحديد أدوار الفاعلين فيه داخل بنية تنظيمية تتوسل بثنائيات تتغيا رفع الشعور المعنوي لأعضاء الجماعة من قبيل الحب في الله والبغض في الله، الطاعة والمعصية، الولاء والبراء، الملك والشيطان، الإيمان والكفر، الخلاص والخطيئة، الجنة والنار.

لذلك، يجد له صدى منقطع النظير في أوساط الشباب المتدين بسبب الفقر والقهر والخواء الروحي، وهي معاناة مشتركة بين اليهودي والمسيحي والمسلم، لأنه في آخر المطاف هو إنسان له أحاسيس تنتظر الإشباع، وآمال تتوق إلى الاهتمام، وأحلام تبحث عن الاحتضان؛ فالذات الإنسانية لا تولد متطرفة، ولكنها تتقلب ذات اليمين وذات الشمال بفعل الأوصياء والوكلاء الذين لا حظ لهم في ميراث الأنبياء وفتوحات الحكماء.

من سمات خطاب التطرف أنه يجدد أزمات التاريخ وجروحه، بيد أنه يعجز عن إحياء روابط التعامل الدنيوي بمفهومه الإنساني، ويجبن عن قبول القواسم المشتركة معرفياً وروحياً وسلوكياً.

والسبب أنه "ليس لدى الأصوليين متسع للديمقراطية أو التعددية أو التسامح الديني أو الحفاظ على السلم أو حرية التعبير؛ فالأصوليون المسيحيون يرفضون اكتشافات علم الأحياء والفيزياء التي تتعلق بأصل الحياة (...) ويفسر الأصوليون المسلمون واليهود ـ على حد سواء ـ النزاع العربي–الإسرائيلي بطريقة دينية استثنائية"

من منزلقاته كذلك، أنه يعتمد على نصوص ثانوية ويهمل النص الأصلي للكتب السماوية، ويستنجد بالتقديس المزور لإضفاء الشرعية على اجتهادات بشرية وتأويلات آنية وتصورات لحظية.

فتُهم الهرطقة والزندقة والتكفير التي تُكال للأدباء والعلماء والمفكرين هي تعبير متطرف للارتباك الديني، وللانزياح المشوه لكلمات الله الأزلية طيلة تاريخ تلك الأديان نتيجة الفهم المنحاز والأفق الضيق والسياسة الوقتية في التعامل مع الخطاب الرباني المبثوث في النص المقدس من طرف

السلطة الكهنوتية في تحالفها الهجين مع متغيرات الممارسة السياسية التواقة للاستبداد باسم الحق الإلهي.

إن المتطرف "من داخل الأديان الثلاثة يتبع نموذجاً محدداً وأشكال تعبئة روحية انبثقت كاستجابة لكارثة مدركة حسياً، ومن ثم نراهم ـ المتطرفين ـ ينخرطون في نزاع مع أعدائهم سياسياً ومعتقديا

فأخلاقيات المتطرف تعبر عن معدنه الجبان وشخصيته السادية، وتنعكس على سلوكه المنحرف الذي يمارسه خارج التاريخ والجغرافيا، لأن منطقه فاسد ولا يتغير، وينبني على كراهية الآخر، والسعي للقضاء عليه باسم كلمات الله.

تُهم الهرطقة والزندقة والتكفير التي تُكال للأدباء والعلماء والمفكرين هي تعبير متطرف للارتباك الديني، وللانزياح المشوه لكلمات الله الأزلية طيلة تاريخ تلك الأديان

وعلى الرغم من وجود النصوص الدينية التي تقرر وحدة المنبع وتتمسك بأصالة المصدر وتدعو إلى الأخوة الإنسانية، فإننا نصطدم في واقع الحال بممارسات متطرفة تجعل من العقيدة الدينية أساساً للإبادة الجماعية.

ففي عام 1499 "خُيِّر المسلمون في إسبانيا بين اعتناق المسيحية أو الترحيل (...) ثم وقع فرديناند، وإزابيلا مرسوم الطرد لتخليص إسبانيا من اليهود الذين خُيِّروا بين قبول التعميد أو الطرد ."

يعتقد الخطاب المتطرف أن التصورات التي يملكها مقدسة ولا تقبل الشك ولا النقد؛ فهي إجابات يقدمها كحلول لواقع الناس، ولذلك فهو ينهج أسلوب الإقصاء والتهميش والإلغاء والاغتيال الفكري والتصفية الجسدية ضد المخالفين.

لذلك لم تستوعب الكنيسة المسيحية ما قاله جليليو جليلي بأن "النص المقدس يعلمنا كيف نسير إلى السماء وليس كيف تسير السماء"؛ أي سير يربط الأرض بالسماء، تعرج الروح إليها بمقدار شفافيتها التي لا تعرف الكراهية، ولا تعيش التطرف، بل إنها تستوعب الناس؛ كل الناس؛ باعتبارهم ذواتا، "أو ليست ـ الذات الإنسانية ـ نفسا ؟."

التطرف لا دين له

أ- التلمود والحرب المقدسة باسم الرب:

في الفكر اليهودي، كثير من التيارات المتطرفة "رفضت مظاهر العلمنة في التجمع الصهيوني. وفي إطار سعيها لفرض ما تراه التعاليم الصحيحة لليهودية أحرقت سيارات من أقدموا على انتهاك حرمة يوم السبت، ومحلات اللحوم التي لا تلتزم الشريعة اليهودية في إجراءات الذبح"

هذا التطرف راجع بالأساس، إلى الإيمان الراسخ خاصة لدى طائفة الحريديم، أن الرِّبِّيِّين وحدهم "يملكون الحقيقة لفهمهم واطلاعهم على الكتب اليهودية المقدسة (وبصفة خاصة التلمود)، وأن طريقهم هو الطريق الصائب الوحيد، وهم يستخدمون وسائل الإكراه الديني (هكفياه هداتيت) والتدخل في حياة الآخرين وكل الوسائل بالنسبة إليهم مشروعة بما في ذلك استخدام السلاح (...) ويعتبرون أنهم يشنون حرباً مقدسة باسم الرب"

هذه العقيدة المتطرفة حالت دون اندماج اليهود على أساس المواطنة في بلدانهم الأصلية؛ فحرصوا على العيش في "الجيتو" اليهودي من أجل مملكة صهيون.

يعتقد الخطاب المتطرف أن التصورات التي يملكها مقدسة ولا تقبل الشك ؛ فهي إجابات يقدمها كحلول لواقع الناس، ولذلك فهو ينهج أسلوب الإقصاء والاغتيال الفكري والتصفية الجسدية

وقد كان لحركة الإصلاح الديني في الفكر اليهودي دور مهم في اعتبار اليهودية انتماء دينيا فحسب، وليست خرافات حول أرض الميعاد؛ فقد ظهرت حركة الهاسكالا؛ أي الاستنارة التي تزعمها "رؤساء أسر يهودية معروفة، مثل موسى مندلسون (1729- 1786) الذي كان يقول في ألمانيا بأن اليهودية عقيدة دينية، لليهودي أن يتبعها في حياته الخاصة، ولكن عليه أن يندمج في الشعب الذي يعيش في وسطه، وأن يأخذ بعاداته وثقافته"

ب- حقائق العلم وسلطة الكنيسة:

لقد عاشت أوروبا المسيحية الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش، واستظلت بظلمات الانحطاط والتخلف والتعصب الديني حيناً من الدهر.

كان التطرف المسيحي يسعى إلى أن تستمر مؤسسة الكنيسة كجهاز مراقبة على إيمان الناس ومحاسبة أفكارهم وكبت تحررهم اللاهوتي، بل إنها كانت تحرم قراءة الإنجيل دون الأخذ بتأويلات القسيسين وانتحالات الرهبان التي كانت تحتل نفس مرتبة القداسة إلى جانب الكتاب السماوي.

ولذلك، لم يتقبل التشدد المسيحي آنذاك أطروحة جليليو جليلي بأن "الشمس مركز الكون ولا تتحرك، والأرض ليست مركز الكون وتتحرك. فاتهمته محكمة التفتيش عام 1633 بالهرطقة وحكمت عليه بالإقامة الجبرية"

وكان ذلك كله باسم الدين ورعاية رجاله.

ولهذا، نجد مارتن لوثر من أبرز المصلحين الدينيين المسيحيين الذين وقفوا ضد احتكار الكنيسة للمعرفة وجعلها مطية للسلطة الوقتية؛ حيث دعا في مقالاته الخمسة وتسعين إلى تحرر العقل، ورفض فكرة الوساطة بين الله والإنسان، وأعلن أن "الخلاص يتحقق بالإيمان لا بصكوك الغفرا

دور المشترك الديني في تحقيق التعايش ومحاربة التطرف

ما معنى العيش المشترك من منظور إسلامي؟ كيف فهم المسلمون فطرة الاختلاف بين الناس جميعا، ودعوة الإسلام في القرآن الكريم والسنة النبوية إلى العيش المشترك، ليس فيما بين المسلمين أنفسهم فحسب، بل مع غيرهم من معتنقي الديانات الأخرى وغير المتدينين؟ وماهي أسباب عدم التزام ثلة من المسلمين بقيم التعايش والتسامح مع بعضهم بعضا ومع غيرهم، والتي أدت إلى مزيد من الخلافات والنزاعات؟

في اللغة، العَيْشُ: معناهُ الحياةُ، وما تكونُ به الحياةُ من المطعم والمِشْرَبِ والدَّخْل. قال تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} والمعيشة والأرزاق مقسومة في هذه الدنيا لكل الناس. والتعايش على وزن "تفاعل" الذي يفيد العلاقة المتبادلة بين طرفين. ومصطلح "التَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ" تَعْبِيرٌ يُرَادُ بِهِ خَلْقُ جَوٍّ مِنَ التَّفَاهُمِ بَيْنَ الشُّعُوبِ بَعِيدًا عَنِ الحَرْبِ وَالعُنْفِ.

وفي الاصطلاح: العيش المشترك هو اجتماع مجموعة من الناس في مكان معين تربطهم وسائل العيش من المطعم والمشرب وأساسيات الحياة، بغض النظر عن الدين والانتماءات الأخرى، يعرف كل منهما بحق الآخر دون اندماج وانصهار. وقد يقصد بـ "التعايش" التفاعل ومشاركة الآخر بفعل العيش أي الحياة بتوفير مقومات الحياة التي تعين على العيشة الراضية.

يشمل مفهوم التعايش تعايش الإنسان مع ذاته هو، ومع الآخر داخل جماعته أو خارجها، وتعايش الجماعة مع الفرد العضو في نفس الجماعة أو في غيرها ومع الجماعات الأخرى، وتعايش الجماعات الأفقية والعمودية في المجتمع الواحد، وتعايش الأكثرية والأقلية، وتعايش بين الأغلبية من

جهة، والأقلية أو الأقليات من جهة أخرى، وتعايش بين الشعوب أو الأمم أو الدول أو الحضارات المختلفة، وتعايش مع البيئة الطبيعة.

يكاد يتفق الناس على أن تنوع الثقافات واختلاف اللغات وتباين الأفكار سنة كونية، اقتضتها مشيئة الخالق عز وجل، فلا تفاضل بين الناس في أجناسهم وألوانهم وأصولهم وأممهم وشعوبهم إلا في التقوى، حيث قال الله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إن فِي ذلك لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) ذلك لأن الله خلق الناس أجناسا وألونا وعقائد مختلفة، وجعلهم شعوبا وقبائل لكي يتعارفوا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) ثم جعل التقوى ميزانا للتكريم الإلهي، ومعيارا أساسيا في تحقيق وحدة الغاية، عند بني البشر على اختلافهم، علاوة على أنها من أسباب حسن المعيشة وازدهارها.

وفي السنة النبوية، أوجد النبي "ص" في المدينة مزيجاً إنسانياً متنوعاً من حيث الدين والعقيدة، وحيث الانتماء القبلي، والعشائري، ومن حيث نمط المعيشة، المهاجرون من قريش، والمسلمون من الأوس والخزرج، والوثنيون من الأوس والخزرج، واليهود من الأوس والخزرج، وقبائل اليهود الثلاثة، بنو قينقاع، وبنو النظير، وبنو قريظة والأعراب الذين يساكنون أهل يثرب، والموالي، والعبيد، وغيرهم.

رُوي إن النبي "ص" (آخى بين المهاجرين والأنصار لما قدم المدينة فكان يرث المهاجري من الأنصاري، والأنصاري من المهاجري ولا يرث وارثه الذي كان بمكة، وإن كان مسلما لقوله تعالى: (إن الذين آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فـــي سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا.(

وفي الوقت الذي عقد فيه رسول الله "ص" مواثيق الأخوة بين المسلمين، سعى إلى عقْد مواثيق المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين، وذلك حـــين وضع الصحيفة التي تضمنت الخطوات الأولى لدستور المدينة المنورة الذي رام مـن ورائه تنظيم الشؤون الاجتماعية لساكنيها من المسلمين وغير المسلمين، مـن خلال إبرام عقود المؤاخاة بين المسلمين أنفسهم، وعقود الموادعة بين المسلمين واليهود، إذ أن من جملة ما ورد في تلك الصحيفة: (وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ... وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث ما ليهود بني عوف.(...

يرى المرجع الديني آية الله السيد صادق الحسيني الشيرازي إن "التعايش هو الطريق الوحيد إلى الحياة الكريمة المطمئنة الخالية من العنف، وهي الحياة التي يتعايش فيها الإنسان مع أخيه الإنسان، وإن اختلف معه في التوجّهات الفكرية والعقائدية والسياسية، فالناس صنفان: (إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق) كما يقول الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه."

ويقول سماحته "يجب أن يبدأ هذا التعايش من أنفسنا، إي في علاقتنا مع الزوجة ومع الأهل ومع المجتمع، وينبغي أن يكون هذا التعايش في مختلف المستويات، من مرض وفقر ومصيبة وابن عاق يؤذي والديه وما أشبه. فعلى الإنسان أن يتكيّف مع هذه الأمور ويتعايش معها حتى تستمر عجلة الحياة بصورة طبيعية."

هذا الاختلاف في التكوين البشري، أوجد أرضية خصبة لتكامل العطاء الإنساني، من خلال تبادل المعارف والأفكار، وتنمية المواهب والطاقات، وتحقيق المصالح والاحتياجات، إلا أنه في الوقت نفسه، ساعد-أيضا -على تهيئة أرضية مناسبة للبغضاء والكراهية؛ فعوض أن يعيش الناس-في ظل وجود الاختلاف فيما بينهم-آمنين على أنفسهم وأموالهم، متعاونين على تحقيق مصالحهم، يعيشون اليوم في ظروف قاسية، تكاد تهلك الحرث والنسل على حد سواء؛ بسبب وقوع الخلافات والنزاعات والحروب بين الناس المختلفين.

بعض المفكرين يرى أن "المخاطر التي تواجهها الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها متنوعة ومتعددة، لكن أعظمها خطرا وأكثرها ضررا هو عدم قدرتها على تجاوز الأزمات التي تنشأ داخلها؛ والتي تنتج عن الاختلافات الفكرية والمذهبية التي لا تخرج عن دائرة الإسلام؛ إذ ينبثق عن هذه الاختلافات الصراعات والنزاعات، التي تفضي في كثير من الأوقات إلى اعتداءات مادية؛ تصل أحيانا إلى سفك الدماء وانتهاك الأعراض، وبعبارة مختصرة يمكن القول إن من أعظم ما تعانيه أمتنا الإسلامية في ظل هذه الاختلافات هو عدم القدرة على التعايش في وجودها، وذلك نابع من عدم الفهم الصحيح لحقيقة الاختلاف، لاسيما إذا أدركنا أن سنة الاختلاف سنة جارية لا يمكن زوالها لأن الله جل وعلا أرادها.

يحمل بعض المفكرين الأحزاب السياسية والقادة السياسيين مسؤولية التفرقة المجتمعية حيث يقول: "إن التعاطي السياسي النفعي مع مسألة التنوع المذهبي والديني والعرقي أو الطائفي والاثني جعلنا نعيش اليوم حالة من التكفير والصراع والتجييش العاطفي الذي يستنزف الطاقات العربية والإسلامية ويشيع البغضاء والإقصاء في امتداد فصولنا الأربعة، حيث أصبح الصراع مستعرا في كل

مكان؛ السودان سوريا، العراق، اليمن، ليبيا، البحرين، لبنان، وغيرها من ديار العرب، مثلما هو في أفغانستان وباكستان ومالي ونيجيريا وغيرها من بلاد المسلمين. ونجده يحدث على مستوى الأفراد والمجتمعات والمؤسسات كما هو على المستوى الوطني وعلى المستوى القومي والإسلامي، ورغم أن هناك العديد من الصراعات محلية الطابع إلا أنه يتم التعبير عنه بطرق متعدية للحدود والقيود".

يذكر الامام المجدد السيد محمد الشيرازي عددا من متطلبات العيش والتي من أهمها: (معالجة الأنانية ونفي الغرور والتعصب، ورفض تحجيم فكر الآخرين، وتأصيل وحدة الجنس البشري، ورفض التجانس القهري تحت أي ظرف كان، والتسامح وقبول الآخر مهما كان دينه أو معتقده الفكري أو السياسي، والسماح للمُختلَف معه ممارسة قوانينه وطرح أفكاره حتى وإن كان ضمن المجتمع الإسلامي أو الحكومة الإسلامية التي تختلف معه.(

وفي المحصلة، نخلص إلى ما يأتي:

-إن الاختلاف فطرة تكوينية، بها يحصل التعارف والتفاهم، وتحقق المصالح والاحتياجات، وإن جعل الاختلاف سببا للبغضاء والعداوة هو انحراف عن الهدف الإلهي في العيش المشترك.

-إن التعايش السلمي والتعامل الإنساني اللائق ييسر على الناس تبادل المنافع الفكرية والمادية، وحل المشكلات التي تواجههم في مجتمعاتهم، ويوفر لهم حياة آمنة مستقرة مطمئنة، تتيح لهم فرص التطور والتقدم، وتساهم في تنمية المجتمع والرقي به.

-إن قيم الدين العليا لا يمكن أن تشرع للعسف والإكراه وانتقاص حقوق الإنسان. فالدين الإسلامي بكل نظمه وتشريعاته، جاء من أجل تحرير الإنسان وصيانة حقوقه وكرامته. لذلك فإن الدين هو الرافد الأول الذي ننتزع منه حقوق الإنسان الأساسية.

-إن الصراع عرقيا كان أو دينيا، مذهبيا أو طائفيا ليس قدرا محتوما ولا حتمية تاريخية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ولا المجتمعات الإنسانية، إذا إن الإرادة الواعية والع

خاتمة

لا غرو أن التجربة الدينية التي تبدأ مسالمة ومتصوفة في بيئة آسنة من الكبت والتسلط والعنف الاجتماعي والجهل بحقيقة الدين تتحول عاجلاً أم آجلاً، إما إلى صرخات ومطالبات من أجل الكرامة والحرية والعدالة الاجتماعية، أو إلى منظمات وظيفية للعنف والإرهاب؛ وبذلك يكون الإقبال المتزايد على خطاب التطرف والنفير إلى ساحات العنف والعنف المضاد بمثابة تعبير فئة عريضة من الشباب عن الإحساس المزعج بغياب الأمن والخوف من المستقبل المجهول، وفقدان بوصلة الهوية الجمعية.

في هذا الإطار، فإن أي خطاب خارج سياقه الحضاري يحاول أن يموقع الدين ـ أي دين ـ تعسفاً في صراعات مدنّسة؛ دون استيعاب خلفياتها الأيديولوجية سينتج تبعاً لذلك أزمات فكرية وعقداً نفسية وعوائق سلوكية، تجعل أفراد المجتمع دائماً عرضة للدجل الديني الخداع ومرتعاً للتطرف والبغي في الأرض بغير حق.

إن سحب بطاقة التزكية الدينية التي يطرح من خلالها رجال الدين أنفسهم خلفاء الله في أرضه ومخلصين للبشرية نيابة عنه، سيؤثر على بنية التصور الديني الذي سيضطر إلى تكييف أطروحاته التراثية وتعاليمه التأويلية مع مستجدات الواقع ومراجعة فكرة الزحف الفردي نحو مملكة الله وإعادة إنتاج معاني أخرى من داخل المؤسسة الدينية أكثر ارتباطا بسعادة الإنسان وبناء التفكير الإيجابي والمساهمة في السلم الاجتماعي والإصلاح بين الناس.

كما أن البحث في دلالات النصوص الدينية وسياقاتها التاريخية، سيساعد على فهم العروض المستقبلية ومخاطر الصراعات الدينية في عالم اليوم.

يجب أن نعي تمام الوعي أن البشرية في أمس الحاجة إلى قراءة نقدية شجاعة للتراث الديني في الموضوع وفي المنهج لإيجاد الانسجام بين أشواق الفطرة وتطور المدنية، من أجل ضمان تناغم حركية التدافع الأرضي بين الناس، أو كما يسميه الشيخ محمد عبده "الأدب السياسي."

من خلال ما سبق، يتضح أن التطرف لا دين له، وأن الرسالات السماوية تدعو في كليتها إلى حفظ النفس البشرية وتحرم الاعتداء على الغير .

"من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا. ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا